ثنائية (اليوتوبيا – الديستوبيا) في الرواية العراقية دراسة سيميائية

م. د. أحمد عبد الرزاق ناصر الحسني

كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية/ قسم اللغة العربية

Electronic Email:

Ahmed.abed67@yahoo.com

ملخص

تهدف الدراسة إلى الكشف عن ثنائية ضدية (يوتوبيا- ديستوبيا) في ثلاث روايات هي: (هواء قليل) للروائي جنان جاسم حلاوي، و(نجمة البتاوين) للروائي شاكر الأنباري، و(وحدها شجرة الرمان) للروائي سليم إنطون. وذلك من خلال دراسة البنية الدلالية المتمثلة في استعمال المربع السيميائي الذي قدمته مدرسة باريس السيميائية لاسيّما رائدها غريماس[١]. تجيب هذه الدراسة عن السؤال الآتي: هل كانت المدن العراقية تمثل المدينة الفاضلة (يوتوبيا) قبل ٩ نيسان ٢٠٠٣، وأصبحت المدينة الفاسدة أو المخيفة بعد غزو العراق (ديستوبيا). من الجدير بالذكر أن البحث عن ثيمة الديستوبيا في الروايات العربية والعراقية قد أغفلتها كثير من الدراسات السردية الحديثة.

١- مدخل

تعد الروايات التي سيتناولها البحث من الروايات التي تعبر تعبيرا مباشرا عمّا آلت إليه المدن العراقية لاسيّما العاصمة بغداد ومحافظة البصرة بعد أحداث سقوط النظام الحاكم في عام ٢٠٠٣، ودخول قوات الاحتلال، ومن ثمّ، فرض الاحتلال عليها؛ إذ يبين الخطاب الروائي لهذه

الروايات ما كان عليه المجتمع العراقي قبل السقوط وما آل إليه بعد السقوط، فقد حاولت هذه الروايات التركيز على ديستوبيا مؤلمة عاشها المجتمع، فلا يكاد يعود المغترب بعد السقوط إلى الوطن ليلتقي بحلمه الذي يأمل أن يتحقق حتى يصطدم بواقع مرير، يؤدي به إلى الهروب من الوطن والعودة إلى مكان اغترابه، بينما يحاول بطل رواية أخرى الخروج من ديستوبيا جاثمة على البلد، لكن بلا جدوى؛ إذ لا هروب من هذه المأساة.

(اليوتوبيا) مصطلح فلسفي مؤلف من لفظتين يونانيتين "topos" ومعناه المكان، ولفظة "ou " ومعناه ليس في مكان، إذن ما ليس بمكان هو الخيالي أو المثالي، فهو مصطلح يدل على ما يجب أن يكون عليه المجتمع المثالي. وأول من استعمل هذا المصطلح توماس موراس Thomas Morus في كتابه "De ()ptimo republicaestatudeque nova utopia" عام ١٥١٦ فكما مبين من اسمه (يوتوبيا) فهو كتاب يصور مدينة خيالية ذات نظم مثالية تضمن للأفراد سبل العيش الرغيد٢. أما لفظة (الديستوبيا) "dystopia" فتعني الضد من اليوتوبيا، فهي المدينة الفاسدة التي ترزخ تحت الفقر والجوع والظلم، عُرِفَ هذا المصطلح عند الكاتب جورج أورويل في روايته الموسومة بـ(١٩٨٤)، وكتبت روايات عديدة في هذا الموضوع منها: " The Hunger Game" ألعاب الجوع لـ سوزان كولبنز، ورواية" The host" المضيف لـ ستيفاني ماير، ورواية فهر نهايت ٤٥١ لـ راي برادبري، وغيرها من الروايات٣.

الكتابات السردية- إذن- في الديستوبيا ليست جديدة في العالم، لكنها لم تكن متناولة عند الروائيين العراقيين بالصورة التي خرجت بها الروايات العراقية بعد أحداث ٩ نيسان ٢٠٠٣.

٢- المستوى الدلالي في التحليل السيميائي

يقع هذا المستوى في الرتبة الثالثة في التحليل السيميائي بعد المستويين الخطابي، والسردي، البحث- مثلما أشرنا في المدخل- يهتم بالمستوى الدلالي فقط، الذي يطلق عليه غريماس المستوى العميق، من دون المستويين الأخرين.

يقول غريماس: "**إن توليد المعنى ليس له معنى إلا إذا كان تغييرا للمعنى الأصلي**"٤؛ لذا عمل غريماس على توليد علامة سيميائية يمكن منها إدراك المعنى، أي أضفى الطابع الشكلي على وسائل خلق المعنى وتصوراته وإدماجه في هيكل معين٥. فهو ينطلق في وصف شكل داخلي لدلالة أي نص من الاعتماد بصورة رئيسة على مبدأ الاختلاف difference، الذي جاء

به اللساني دي سوسور في بداية القرن العشرين، فقد "**استعمله للدلالة على أنّ المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى**"[٦]. أفاد غريماس من هذا المبدأ بتصور أنّ الاقتراب من البنية الدلالية هو استيعاب هذا الاختلاف المنتج للمعنى في إطار هذه البنية التي تدرك بحضور عنصرين_ في الأقل- تربطهما علاقة ما[٧].

إذن، البنية الأساسية للدلالة هي التطور المنطقي لفئة سيمية ثنائية[٨]، مثلا الفئة (قصير يقابل طويل)، يشكلان علاقة فيما بينهما هي علاقة التضاد، وباستطاعة كل سيم أيضا أن يولّد طرفا جديدا يكون نقيضه،ولتوضيح مفهوم السيم أكثر نرسم الجدول الآتي[٩]:

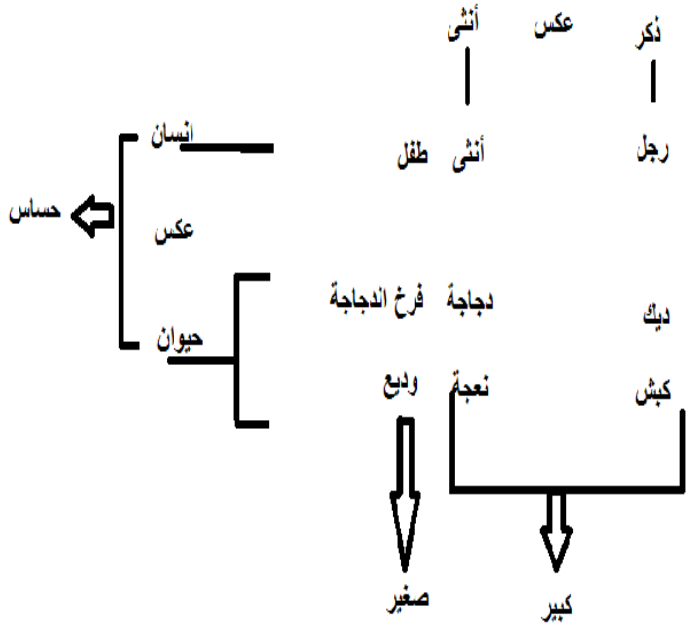

فهكذا يمكن المقابلة بين سيم (إنسان) وسيم(حيوان) في محور دلالي واحد (حساس)، كذلك المقابلة بين سيم (كبير) وسيم (صغير) في محور دلالي واحد (حجم).

فإذا افترضنا أن (د) هي تجل لعالم دلالي ما، يمكن أن نتصور أن (ـــــــــــــ د) هو غياب مطلق للمعنى ونقيض لـ(د)، وإذا افترضنا أن المحور الدلالي(د) يتمفصل على سيمين متناقضين: د١ د٢

فإن كل واحد من هذين السيمين يحيل على نقيضه:

ـــــــــــ د١ ---------- ـــــــــــ د٢

وبناء على هذا الاستنتاج يمكن أن نصوغ المربع السيميائي الآتي[١٠]:

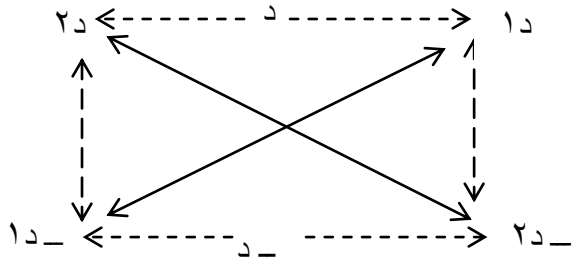

علاقة التضاد

علاقة التضمين أو الاقتضاء

علاقة التناقض

تتحقق- إذن- في المربع السيميائي علاقات مختلفة[١١]:

أ- علاقة التدرج: وتشمل العلاقة الأولى بين (د١)و(د٢)، فتولد المحور (د). والثانية تشمل: (ـــــــــــ د١) و(ـــــــــــ د٢)، فتولد المحور (ـــــــــــ د).

ب- علاقة التناقض: تنشأ العلاقة الأولى بين (د) و(ـــــــــــ د). وعلى المستوى الأدنى تنشأ علاقة تناقض ثنائية بين (د١) و(ـــــــــــ د١). كذلك (د٢) و(ـــــــــــ د٢). ومن الواضح أنّ عملية النفي هي التي تحقق الانتقال من (د١) إلى (ـــــــــــ د١)، ومن (د٢) إلى (ـــــــــــ د٢).

ت- علاقة التضمين أو الاقتضاء: عملها ربط ـــــــــ د٢ بـــــ د١. كذلك ـــــــــــــ د١بـــــــ د٢. تتولد هذه الأخيرة من عملية النفي السابقة.

يمكن من الشكل الهندسي أعـــلاه، الـــذي أطلـــق عليـــه غريمـــاس، المربـــع الســـيميائي semioticsquare، أن نحصل على علاقة ثنائية بين حدين، ومن خلال العلاقة التدرجية بـــين هذين الحدين نحصل على محور دلالي، يمكن تمثيل ذلك بالشكل الآتي:

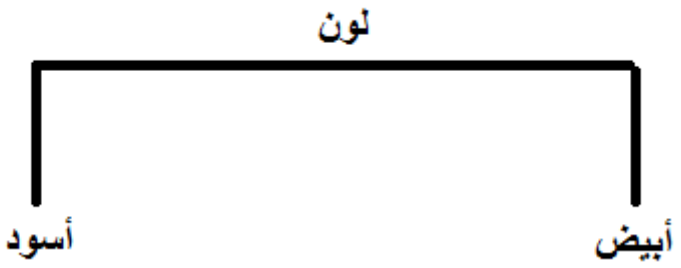

كذلك يمكن الحصول على أحد الطرفين، من نفي الأوّل لإثبات الثاني[١٢]:

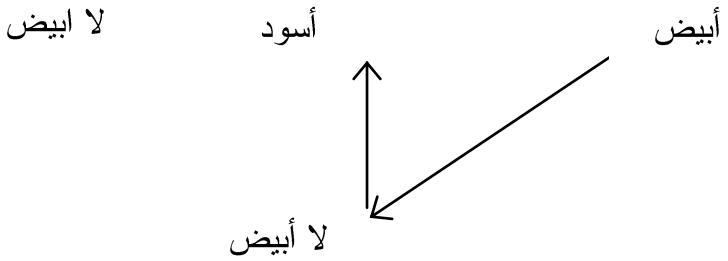

٣- التطبيق

تضمنت الروايات الثلاث[١٣]، التي نتناولها في البحث ثنائية مشتركة هي وضع المدن العراقية قبل سقوط الحكومة العراقية عام ٢٠٠٣ والأحداث التي رافقت السقوط وما نتج عنه في السنوات التي تلت هذا التاريخ، وهذا لا يمنعنا من القول أنّ الروايات تنتمي لقاعدة منطق أولي تمثله ثلاثة أزمنة[١٤]:

١- ما قبل : وضعية افتتاحية.

٢- أثناء : اضطراب أو تحول.

٣- ما بعد : وضعية نهائية.

وبالعودة إلى الروايات الثلاث يمكن اختصار المراحل الثلاث إلى مرحلتين ما قبل وما بعد للحصول على الثنائية التي تتشكل منها هذه الروايات، فيتم التعبير عن المحتوى بمقولتين:

سيطرة خضوع

فوضى تمرد

ففي رواية (هواء قليل) نلحظ سيطرة الدولة وقوة السلطة التي كان يمارسها النظام المستبد على الشعب المغلوب على أمره، إذ يفضح الخطاب الروائي زمن الخوف والخطر والموت تحت حكم ظالم لا يستطيع المواطن فعل أي شيء إزاءه؛ لذا يصبح المنفى ملاذا لابد منه، ومكانا قسريا لا يمكن مقاومته، وفي رواية (نجمة البتاوين)، يقول الراوي: "**أُرسل أبناء البلد إلى الموت في قصر شيرين، والمحمرة والأهوار، ولاحقا إلى الكويت وتخوم السعودية وجبال كردستان وصحارى الرمادي... أُغلقت البارات وحوصرت النساء في البيوت، أثر قانون الدعارة الشهير الذي يبيح قتل المرأة من قبل أقربائها، وهاجر أدباء وفنانون ومعلمو مهن واختصاصيون**"[١٥].

وهذا ما نلحظه في رواية (وحدها شجرة الرمان) فقد أوضحت ما كان يعانيه المواطنون جراء ممارسات السلطة الظالمة، والخضوع الذي خيم على كل أفراد الشعب العراقي، نتيجة الخوف من بطش السلطة، فلم يحاول فعل أي شيء تجاه هذا المدّ الذي غطى جميع أرجاء العراق، سوى الفرار، إذ حاول بعض الأفراد الهروب خارج العراق، وهذا ما فعله عمّ البطل، فقد فرّ إلى الخارج خوفا من بطش السلطة الحاكمة؛ كونه شيوعيا: "**عندما عاد أموري إلى البيت سألته عن عمي صبري وعن معنى الشيوعيّة، فقال لي إنّ الشيوعيّين والبعثيّين أعداء ألداء وأنّ عمّي هرب لأنّه كان مطاردا**"[١٦].

غير أنّ هذا الوضع لا يملك أرضية ثابتة يبنى عليها مستقبل البلد، فبعد مرور مدة ليست بالقصيرة تتحول السيطرة إلى فلتان، مما يؤدي إلى تحول الخضوع إلى تمرد، يمكن أن نمثل لهذه التمفصلات الدلالية الأولية من خلال هاتين المقولتين (سيطرة- فلتان) في المربع السيميائي الآتي:

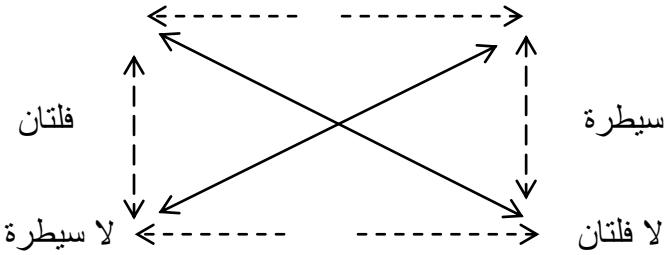

وعليه يمكن أن نصور العمليات في المربع السيميائي على النحو الآتي:

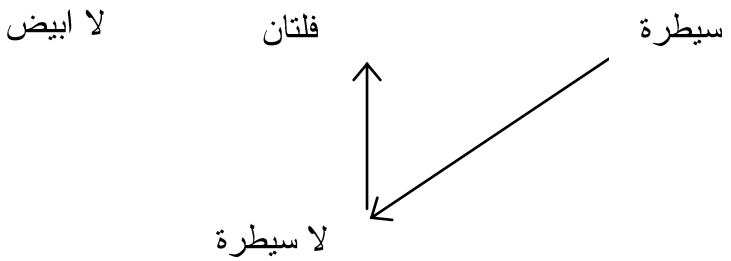

يتجسد هذا التحول بسقوط النظام العراقي في عام ٢٠٠٣ على يد قوات الاحتلال بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثمّ، احتلال العراق، مما أدى إلى حصول ثورة على الخضوع القابع في الإنسان العراقي، فيترجمها المجتمع إلى أعمال نهب وسلب معظم ممتلكات الدولة، مصبا نار غضبه على كل ما ينتمي للدولة من دوائر وقصور وبنايات، ظنّا منه أنّها عائدة إلى نظام صدام، ومتناسيا أنّها في النهاية ممتلكات الشعب لا النظام، ففي رواية (نجمة البتاوين)، يقول الراوي: "**كان يبكي بصمت. كان يبكي كل شيء في حياته. في تلك اللحظة من التولّه البكائي ندب الكنوز المسروقة من المتحف الوطني. والعمارات المهدمة في الرصافة. والجدران المهملة في الساحات العامة. ندب الرشيد وقد صار جثة هامدة تنتظر الدفن**"[١٧]. وهذا ما حاول إظهاره الخطاب في رواية (وحدها شجرة الرمان): "**بعد سقوط ودخول الأمريكان عمّت الفوضى وساد الهياج لأيام. كانت الكهرباء مقطوعة فلم نشاهد شيئا على التلفزيون الذي كان جاثما وشاشته عمياء لا ترى شيئا ممّا يحدث. لكن نشرات الأخبار على الراديو كانت تتحدث عن نهب الكثير من الممتلكات العامة والوزارات والمكتبة الوطنية والمتحف**"[١٨].

ولا تختلف رواية (هواء قليل) عن سابقتيها في إظهار مدى الدمار الذي لحق مدينة البصرة، إذ أدى غياب السلطة إلى ظهور مليشيات وأحزاب تحاول ملء الفراغ الذي أحدثه دخول قوات الاحتلال في العراق، فلا تكاد شوارع البصرة تخلو من المسلحين التابعين لهذه المليشيات: "**والخطورة تتأتى من نشاط عصابات الجريمة والتهريب، وانتشار المليشيات الطائفية المتصارعة للسيطرة على البصرة: (جيش المهدي، فيلق بدر، حزب الفضيلة، وثار الله). أما جنود جيش الاحتلال البريطاني فلا يتورعون عن إطلاق النار على أي شخص يتعثرون به مصادفة في الطريق، أو يشكون في تعاونه مع قوى المعارضة العراقية: (حزب البعث، كتائب ثورة العشرين، وجيش المهدي)**"[١٩].

الانتقال- إذن- من السيطرة إلى الفلتان يجب أن يمرّ بمرحلة وسط، أطلق عليها المربع السيميائي بـ(لا سيطرة)، وقد تمثلت بسقوط النظام ودخول قوات الاحتلال إلى المدن العراقية.

إنّ العمل الإجرائي الذي توصلنا إليه من تمثيل عناصر المربع السيميائي أعلاه يقودنا إلى مربع سيميائي أشمل يضمّ عناصر المربع السابق، فضلا عن ثنائيات فرعية تصب جميعها في المربع السيميائي الرئيس الذي يمكن منه قراءة الخطاب الروائي للروايات الثلاث، فمن الممكن أن تؤدي فيه ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا، دورا تحاول الروايات إبرازه بصورة واضحة، وعليه يمكن تمثيل هذه الثنائيات الرئيسة والفرعية في مخطط شامل يقرأ منه المستوى العميق الذي نصل منه إلى المستوى الدلالي للخطاب الروائي[٢٠]:

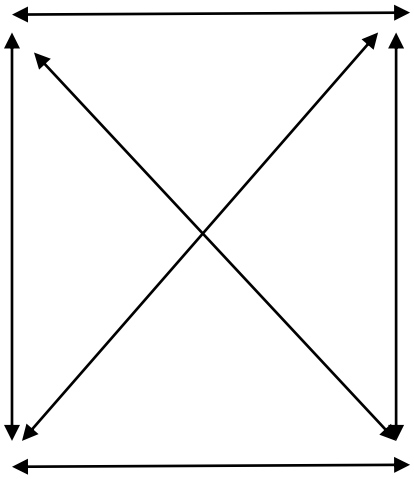

تصور الروايات الثلاث المدن العراقية- متمثلة بمدينتي بغداد والبصرة بوصفها أهم المدن- تصورها تحت وطأة الاحتلال الأمريكي والغياب التام للحكومة وتسريح الجيش العراقي؛ فحرص الخطاب الروائي على بيان مدى الدمار الشامل الذي لحق العراق والتغير الذي حصل للإنسان والبيئة، فالفساد والخراب حل بالشوارع والأسواق والخراب طال البنايات وأصبحت الأنهار تفقد وظيفتها، وتحول لون مائها إلى لون مياه المجاري والقاذورات، تغير كل شيء حتى الموتى ما عادت أجسادهم تصل إلى (المغتسل) كاملة، بل أجزاء قد اشتركت بها أكثر من جثة، نتيجة السيارات المفخخة أو الأحزمة الناسفة أو نتيجة الاقتتال الطائفي، فبدأ كل شيء يحترق ويتغير.

فلو تفحصنا الثنائيات الفرعية في المربع السيميائي، لوجدنا أنّ هنالك في الثنائية الأوّلى محورا دلاليا يضم ثنائية (موت اعتيادي – موت غير اعتيادي)؛ على أنّ هذا المحور سيمثل المجتمع العراقي قبل دخول قوات الاحتلال، وقد يمثل مرحلة ما قبل نظام صدام ومرحلة ما بعد حكم النظام؛ فلحضور هاتين المرحلتين في الروايات دور فاعل في إسناد الثنائية الرئيسة؛ إذ يعمل الخطاب الروائي بعد دخول قوات الاحتلال على إثبات سيمة إحدى الثنائيات ونفي الأخرى؛ لذا سيكون الانتقال من سيمة (موت اعتيادي) إلى سيمة (موت غير اعتيادي) عبر سيمة ثالثة هي سيمة (لا موت اعتيادي):

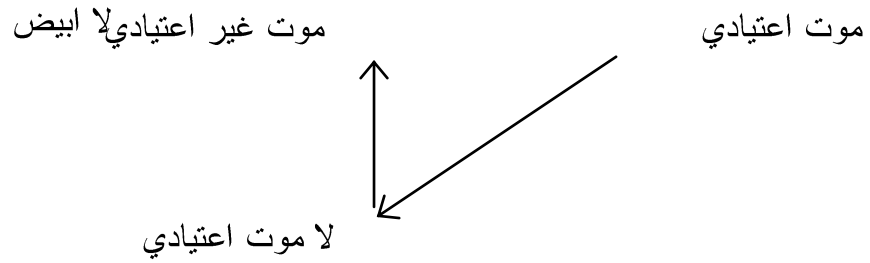

مثلت الروايات السيمة البينية من الحروب التي مرت على الشعب العراقي والقتل الذي انتشر بسبب هذه الحروب، فقد حصدت مئات الآلاف من القتلى والمفقودين والمعوقين، فالجثث التي تحمل إلى المقابر محروقة أو مُقَطّعة الأوصال: "**منذ السبعينات وحتى الآن، حروب مع الأكراد، حروب بين السلطة والأحزاب السياسية، تصفيات داخل السلطة الواحدة، وأخيرا الحروب المتوالية التي عاشها البلد. أتذكر، أنا زاهر، أنني فتحت عيني في منتصف الستينات على ثلاثة قتلى من الحرس الوطني جلبوهم إلى منطقتنا، ورأيت بعيني كيف كانت الدماء تلوث البطانيات التي تلف الجثامين**"[٢١]؛ لذا كانت هذه المرحلة هي السبب في إثبات مرحلة ما بعد صدام: "**كان كل يوم من أيام الأسبوع صعبا وله مآسيه الصغيرة الخاصة بتفاصيلها، لكن الخميس كان الأصعب والأطول لأنّه اليوم الذي تصل فيه ثلاجة الفرطوسي المحمّلة بحصاد الموتى الأسبوعي. كل أولئك الذين تُقتَطعون من عوائلهم وحيواتهم ويلقى بها في المزابل على أطراف بغداد أو في النهر أو يتعفّنون في الطب العدلي. معظمهم بلا أوراق أو هوية ولا يعرف لهم اسم،فكنت أضع في دفتري سبب الموت، بدلا من الاسم المجهول: رصاصة في الجبين، خطوط حمراء حول الرقبة، طعنات سكين في الظهر، جسد مقطع بمنشار كهربائي، جسد بلا رأس، تفتّت في انفجار و و و**"[٢٢].

يفضي هذا النص إلى أنّ الموت أصبح بالجملة نتيجة لفلتان الوضع الأمني وما أسباب الموت إلا دليل على انتشار مرض الطائفية، أو التسليب، أو القتل من قوات الاحتلال، أو عن طريق الانفجارات.

ولا تختلف الثنائية الفرعية الأخرى عن الأوّلى إلّا في سرعة الانتقال؛ فالانتقال من سيمة السلطة العراقية إلى سيمة سلطة الاحتلال يكون بنفي الأولى وإثبات الثانية، ولا يتم هذا المرور إلا عن طريق سيمة بينية هي لا سلطة عراقية:

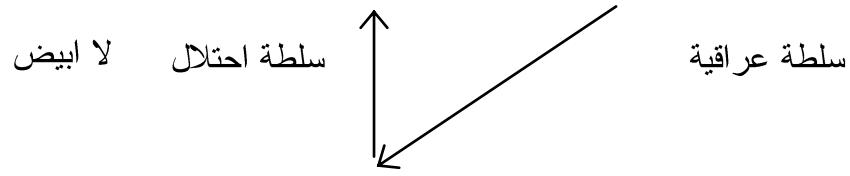

خلّف فرار صدام ومعه السلطة الحاكمة فراغا سرعان ما ملئ من قوات الاحتلال بتشكيل سلطة جديدة بقيادة أمريكية في بغداد على رأسها (بول بريمر)، أما في البصرة فقد عيّن الجيش الأمريكي- البريطاني حاكما دانماركيا يدعى (أوليه فوهر أوسين) في أيار/ مايو عام ٢٠٠٣[٢٣].

ولا تبتعد الثنائيات الفرعية الأخرى عن هذه الثنائيات، كل هذا أدى إلى دمار شامل لكل البنى التحتية في العراق، بل إنّ الإنسان العراقي كانت له الحصة الأكبر في هذا الدمار، فالقتل أصبح من دون سبب، سوى أنّ شخصا ما ينتمي إلى طائفة معينة أو كان ينتمي لحزب البعث الحاكم: "**أما القتل الطائفي فبدأ يستشري بدون أي إعلان رسمي وبدون أن يتوقّف، بعد ثلاثة أيام كانت الفضائيات تضج بالضوضاء وبالشعائر الطائفية من الجانبين [السني والشيعي] وتستضيف المعمّمين الذين تمرس أغلبهم على إثارة النعرات وإلهاب مشاعر أبناء طائفتهم**"[٢٤]. يمكن الوقوف أيضا على الدمار الذي لحق بشوارع بغداد: "**ثمة موت يقنط زوايا الشوارع ويقيم على أسطح البيوت، وكانت الدوريات الأمريكية تروح وتغدو، تتوقف أحيانا لكي تنظم السير في التقاطعات العامة، فهل حقا هذا هو الميدان؟. الأزبال تملأ الأرصفة، والناس تسير بأسمال لا تنتمي إلى هذا القرن، والسيارات تقف أينما كان، وبائعو اللبلبي والكبة والقلوب المشوية يتوزعون كافة الفسحات في الساحة**"[٢٥].

غير أنّ العمليات في المربع السيميائي التي تتم بين الثنائيات المتضادة الرئيسة (يوتوبيا- ديستوبيا) تتطلب بعض التحديدات الزمانية التي يمكن بموجبها معرفة، هل كان العراق قبل السقوط مجتمعا يوتوبيا وتحول بعده إلى مجتمع ديستوبيّ. نرسم هذه العمليات على وفق المخطط الآتي:

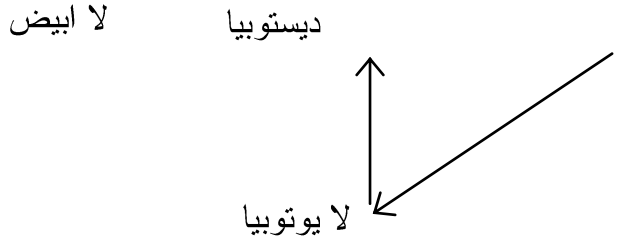

نلحظ أن المرور بـ(لا يوتوبيا)؛ للوصول إلى (ديستوبيا) تمثل حقبتي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي التي عاشها المجتمع العراقي تحت وطأة النظام الحاكم، ونكون قد جانبنا الصواب إذا اعتقدنا أنّ اليوتوبيا هي في هاتين الحقبتين، وأنّ مرحلة السقوط هي التي تمثل (لا يوتوبيا)، وللوصول إلى (ديستوبيا) يجب نفي العنصر الأول (يوتوبيا) وإثبات العنصر الثاني، وفي قراءتنا للروايات الثلاث لا يمكن الشعور باليوتوبيا بوصفها سيمة سبقت سقوط النظام العراقي، ومن ثم، احتلال القوات الأمريكية للعراق، فالثنائيات الفرعية التي تمّ فحصها في المربع السيميائي أعلاه (لا موت اعتيادي، لا سلطة عراقية، لا جيش عراقي، لا بيئة نظيفة)، فضلا عن الخضوع الذي مثلنا له في المربع السيميائي الأوّل عبارة عن لا يوتوبيا، ومثلما جاء به مربع غريماس فإنّ العلاقة بين لا يوتوبيا وديستوبيا علاقة تضمين أو اقتضاء، أي إن التحويل سيتم على وفق السهم في المخطط أعلاه من لا يوتوبيا إلى ديستوبيا.

أما اليوتوبيا فقد تمثلت على هيئة تداعيات في أذهان شخصيات الروايات الثلاث، فلا تستيقظ هذه الشخصيات من نوستولوجيا حالمة، إلا حينما تصطدم بالواقع المرير الذي خلفته سياسة النظام الصدامي: "**داخل يونس يقين بأنّه رجع إلى طبيعته الأولى؛ عاد رجلا لا يضطرم بالذكريات، فكلّ ما جاش في ذهنه من رونق الماضي وجماله قد اختفى، ولم يبق سوى الحاضر الذي يعيشه وينهمك فيه، ودار في ذهنه أنّه فقد أثمن ما لديه: أوهامه**"[٢٦].

والشيء نفسه يحدث في الروايتين الأخريين، فالبطل في رواية نجمة البتاوين (زاهر) والعائد من الخارج إلى الوطن كانت كل الأماكن التي يمرّ بها تشعره بحنينه إلى الماضي، فاليوتوبيا ليست المجتمع الذي عاش في تلك المدة؛ إذ إنّها كانت حُبلى بحروب: حرب العراق وإيران،

وحُبلى بتوأم حرب الخليج والحصار الذي أنهك قوى الشعب: "**كان وطوال سنوات وسنوات يتغزل بصورة بائدة، ماتت ودفنت. غابات من النخيل تغطي مساحات هائلة تمتد شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، طوال الطريق وقلبي يخفق بعنف، سيلاقي وجها أحبه بعد سنين من القطيعة، هل حقا سيرى المدينة التي أينعت في أحلامه طوال تلك السنين؟، سيرى شوارعها وأبنيتها وساحاتها وباصاتها ومشاريعها ومعالمها التي ظلت حاضرة في ذهنه**"[٢٧]. وبسبب هذا الحصار فقد بطل رواية (وحدها شجرة الرمان) خطيبته فقد تركته وسافرت إلى عمان؛ للعلاج من مرض سرطان الثدي: "**قبل شهرين وأنا أستحم أحسست بحبة تحت الجلد في جانب نهدي الأيسر. ذهبت إلى الطبيبة لإجراء الفحوصات... وقررت الطبيبة أن من الضروري إجراء عملية لاستئصالها وفحصها وكانت نتيجة الفحص أنّها خلايا سرطانية**"[٢٨]. يتبيّن لنا أنّ هذه الأمراض لم تكن معروفة من قبل، وقد تكون نتيجة لنشوب الحرب العراقية الإيرانية والأسلحة الكيمياوية التي استخدمت فيها، أو نتيجة الحصار المفروض على العراق أثر اجتياح الأخير لدولة الكويت الجارة، على أنّ هذه المرحلة هي بداية لديستوبيا لابد منها بوصفها نتيجة لما يحصل في العراق.

يتجه الخطاب الروائي في بعض الأحيان إلى الزمن الخارجي، فيذكر الراوي بصيغة الأنا في رواية (هواء قليل) أيام وجود الانجليز في بداية القرن الماضي، وكأن اليوتوبيا فارقت المجتمع العراقي منذ زمن بعيد، فيستخدم الراوي الهامش ليوضح للمروي له الخارجي بعض المصطلحات التي ربما لا يعرفها الجيل الحاضر، فيقول في وصفه جزيرة الداكير حينما وصف بيوتها: "**الداكير جزيرة مربعة صغيرة، طبيعتها المائية، ضفافها، مساحاتها الخضر،تهبها صفات سياحيّة ومديات جماليّة مميّزة، فمن كلّ الجوانب تجري أنهار العشار، والخندق وشط العرب،وتحت سماء زرقاء متألّقة تنتصب صواري السفن، وأشجار الصفصاف واليوكالبتوز، والأرض معشبة**"[٢٩].وهناك إشارات في الروايات تنبه المروي له إلى مرحلة الستينيات والسبعينيات، على أنّ هذين العقدين زمان سابق على حكم صدام حسين فكما هو معلوم أنّ صدام تسلَّم الحكم عام ١٩٧٩.

وبالعودة إلى المربع السيميائي نستدل على أنّ اليوتوبيا تقع في الزمن الخارجي للروايات الثلاث؛ فأبطال الروايات هم من مواليد حقبة الستينيات؛ كونهم يشيرون إلى أعمارهم في مرحلة السقوط بأنّهم في الأربعينات؛ لذا فإنّ مدة حكم صدام تمثل (لا يوتوبيا)، أما الزمن الذي أشير له بعد السقوط في الروايات الثلاث هو الذي مثل (ديستوبيا)، والذي حاولت الروايات الكشف عنه في خطابها.

وعليه، فإنّ (لا يوتوبيا) ما هي إلّا ديستوبيا أولية عاشها المجتمع العراقي قبل أن يدخل في نفق الديستوبيا الأكثر ظلاما بعد الغزو الأجنبي للعراق، فالسيمات الفرعية التي انضمت تحت لواء (لا يوتوبيا)، مثل سيمة (لا موت اعتيادي) هي تضمين لسيمة (موت غير اعتيادي)، كذلك سيمة (لا سلطة عراقية) هي فراغ يقتضي سده وقد فعلت قوات الاحتلال؛ إذ شكلت سلطة احتلال بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وما انكسار الجيش العراقي في حرب الكويت وموت أو هروب بعض قياداته إلى خارج العراق، ومن ثمّ، حلّه من قوات الاحتلال؛ إلّا تهيئة لوجود قوة أكبر تحل محله، هي (جيش أجنبي)، وهكذا السيمات الأخرى.

إذن، يمكن أن نستنتج من التحليل السابق أنّ المجتمع أيام حكم صدام حسين –كما تصوره البنية الدلالية في الروايات الثلاث– لم يكن مجتمعا يوتوبيا، بل عاش في حالة لا حياة، إي حالة غيبوبة عن كل ما يحصل في العالم الخارجي، فالبلد كان سجنا كبيرا لا يستطيع المواطن الفرار منه، والمدينة العراقية كانت في حال شبيه بالديستوبيا او بعبارة أخرى كانت عتبة متقدمة لديستوبيا ما بعد السقوط.

الهوامش

١ لساني فرنسي من أصل لتواني، ولد عام ١٩١٧، مؤسس مدرسة باريس السيميائية له العديد من الأبحاث والكتب في السيمياء السردية توفي عام ١٩٩٢. جون ليتشه، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، من البنيوية إلى ما بعد البنيوية، تر: فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ينظر: ص٢٧٠- ٢٧١.

٢ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ينظر: ص٢٤.

٣ http://www.wikiwand.com

٤ سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة القصيرة، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦، ص ١١٩.

٥ نفسه، ينظر: ص١١٩.

٦ رشيد بن مالك، مقدمة في السيمياء السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر،(د-ط)، ٢٠٠٠، ص١٠.

٧ المصدر نفسه، ينظر: ١٠.

٨ السيم: هو الوحدة الدلالية الدنيا، صيغ على وزن فونيم الوحدة الصوتية الدنيا. غريماس، في المعنى (دراسة سيميائية) تر: نجيب عزاوي، مطبعة الحداد اللاذقية، ص٢١٤.وهنا يحاول غريماس استلهام فرضية هلمسليف التي يمكن بمقتضاها فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير. رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ينظر: ص١٠.

٨ رشيد بن مالك، مقدمة في السيمياء السردية، ينظر: ص١١.

١٠ المصدر نفسه، ينظر: ص١٤.

١١ المصدر نفسه، ينظر: ص١٥.

١٢ وقد أشار ابن رشد إلى هذا، إذ يقول: "وكل متضادين فمن شأنهما أن يكونا في موضوع واحد- مثل الصحة والمرض الموجودين في جسم الحي، والبياض والسواد الموجودين في الجسم على الإطلاق، والعدل والجور الموجودين في نفس الإنسان"ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، تحقيق: محمود قاسم، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٨٠، ص١٤٤.

١٣ الروايات هي: (رواية نجمة التاوين)، شاكر الأنباري؛ رواية (وحدها شجرة الرمان)، سليم أنطون، رواية (هواء قليل)، جنان جاسم حلاوي.

١٤ عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردي ، نماذج تطبيقية، دار المغرب للنشر والتوزيع، (د- ط)، ينظر: ص٨.

١٥ الرواية، ص٩٣.

١٦ الرواية، ص ١١٨-١١٩.

١٧ رواية نجمة البتاوين، ص١٠١

١٨ الرواية، ص١٠٣

١٩ الرواية، ص٢٣٦. أسس جيش المهدي من رجل الدين مقتدى الصدر نجل رجل الدين محمد محمد صادق الصدر. أما فيلق بدر فهي قوة تشكلت في إيران عام ١٩٨٢ بوصفها جناحا عسكريا تابع للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، الذي تشكل هو الآخر في إيران، وقد عادت هذه القوة إلى العراق بعد ٩ نيسان ٢٠٠٣. أما بقية الأحزاب والقوات التابعة لها فمعظمها أسست بعد السقوط. معد فياض، المليشيات في العراق إلى.. أين؟، جريدة الشرق الأوسط، العدد: ١٠٠٩٠، ١٤ يوليو، ٢٠٠٦.

٢٠ أحمد عبد الرزاق، سجالية القوة والضعف، روايات عبده خال دراسة سيميائية، جامعةالملك سعود، كرسي الأدب، السعودية، ط١، ٢٠١٥، ينظر: ص٢٥٦.

٢١ رواية نجمة البتاوين، ص ١١.

٢٢ رواية وحدها شجرة الرمان، ص ١٨٥.

٢٣ رواية هواء قليل، ينظر: ص ٢٦٠.

٢٤ رواية وحدها شجرة الرمان، ص ١٨٨.

٢٥ رواية نجمة البتاوين، ص٦٧.

٢٦ رواية هواء قليل، ص ٢٢٤.

٢٧ الرواية، ص ٦٥- ٦٦.

٢٨ الرواية، ص ١٥٩.

٢٩ الرواية، ص ٢٥٧.

المصادر والمراجع

١- ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، تحقيق: محمود قاسم، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٨٠.

٢- أحمد عبد الرزاق، سجالية القوة والضعف، روايات عبده خال دراسة سيميائية، جامعة الملك سعود، كرسي الأدب، السعودية، ط١، ٢٠١٥.

٣- جنان جاسم حلاوي، هواء قليل، رواية، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

٤- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٥- جون ليتشه، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، من البنيوية إلى ما بعد البنيوية، تـر: فـاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٦- رشيد بن مالك، مقدمة في السيمياء السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر،(د-ط)، ٢٠٠٠.
٧- سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة القصيرة، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦.
٨- سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، رواية، منشورات الجمل، ٢٠١٣.
٩- شاكر الأنباري، نجمة البتاوين، رواية، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، ٢٠١٠.
١٠- عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردي ، نماذج تطبيقية، دار المغرب للنشر والتوزيع، (د- ط).
١١- غريماس، في المعنى، دراسة سيميائية، تعريب: نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقيـــة، (د-ط)، (د-ت).
١٢- محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، العدد: ١٦، ٢٠٠٤.
١٣- معد فياض، المليشيات في العراق إلى.. أين؟، جريدة الشرق الأوسط، العدد: ١٠٠٩٠، ١٤ يوليو، ٢٠٠٦.
المواقع الألكترونية
http://www.wikiwand.com

The binary of Utopia and Dystopia in Iraqi novel: A Semiotic study

Name of Scholar: Ahmed Abdul Razaq Nasir

Abstract:

This study aims to bring to light the contrary binary (Utopia-Dystopia), which played a thematic role in three Iraqi novels, published after 2003: (Few Air) for the novelist Jinan Jasim Hillawy, (Star of AL-Battaween) for the writer Shakir AL- Anbari And (The Pomegranate Alone) for the writer Sinan Antoon. We will focus on the Semantic structure, by using the technique of Semiotic Square, which introduced by Paris School Semiotics, especially her pioneer Greimas.

This Study try to answer this question: Were Iraqi cities represent a utopian cities before 9 April 2003, and then became a dystopian cities after invasion of Iraq?

It is worth mentioning, the focusing on the theme of Dystopia in Iraqi and Arabic novels, has been overlooked from many modern narrative studies.